بلاغة التعبير النبوي عن حُسْن الخُلُق

د. إبراهيم سعيد السيد
أكاديمي مصري

الحَمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ الإنسانَ بقدْرَتِهِ وتَرْتِيبِه، ودَلَّهُ على مَنْفَعَتِهِ وتَأْدِيبِهِ وتَهْذِيبِهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على صاحِبِ الخُلُقِ الأَفْضَلِ، والأَدَبِ الأَكْمَلِ، الذي زَكَّاهُ ربُّهُ في الذِكْرِ الحَكِيمِ، وعَظَّمَ مَقَامَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، أمَّا بَعْدُ،

فالإِسْلامُ عَقِيدةٌ وعِبَادَاتٌ ومُعَامَلَة، جاءَ للنَّاسِ بِمَا تُقَوَّى بِهِ الصِّلَة، وهَيَّأَ لهُمْ مِنْ أَطَايِبِ الأَحْكَامِ مَا تَسْمُو بِهِ الرُّوح، وتَتَهَذَّبُ بِهَا النَّفْسُ الجَمُوح، حَتَّى إذَا لانَ مِنَ الإِنْسَانِ جَانِبُه، وصفَا قَلْبُهُ واسْتَقَامَ قَالَبُه، نَشِطَ لِمَا كُلِّفَ بِهِ وأُمِر ، وخَشَعَ لِمَا تَلَقَّاهُ مِن الوَحْيِ واعْتَبَر. وبِحُسْنِ الخُلُقِ يَكْمُلُ الدِّينُ، ويَرْتَفِعُ الإِنْسَانُ في عِلِّيِّين، ويَبْلُغُ شَأْوَ الكَامِلِين، فَعَنِ الرَّبيعَ بْنَ سُلَيْمَانَ قال: سمِعْتُ الشَّافِعِيَّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-يقولُ: «المُروءَةُ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالسَّخَاءُ، وَالتَّوَاضعُ، وَالنُّسُكُ»(١).

وقَدْ نُقِلَ مثلُهُ عَنْ عُمَرَ بن الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إذْ يَقُولُ: «حَسَبُ المــَرْءِ دِينُهُ، ومُرُوءَتُهُ خُلُقُه، وأَصْلُهُ عَقْلُه»(٢).

ومِنْ ثَمَّ، شَرَعْتُ في انْتِقَاءِ الأَحَادِيثِ التي تُبْنَى بِهَا النَّفْسُ عَلَى أُسُسِ العُلا والمكَارِم، واصْطَفَيْتُ مِنَ الأَدَبِ المُفْرَدِ وغَيرِهِ نُصُوصًا تَنْفِي عَنِ المجْتَمَعِ المكَارِهَ والمغَارِم، وإِذَا كانَ الجِهَادُ في الإِسْلامِ على نَوْعَيْنِ، جِهادِ الفَتْحِ وردِّ الأَعْدَاءِ، وجِهَادِ النَّفْسِ ومُقَاتَلَةِ الأَهْوَاءِ، وكِلاهُمَا دَاخِلٌ -إنْ شَاءَ اللهُ- تحْتَ وَصْفِ النَّبيِ لَهُ بِأَنَّهُ «ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلاَمِ»، فَلا أَقَلَّ مِنْ أَن نحُاوِلَ العَمَلَ في أَحدِهِمَا إِذَا حُجِبَ عَنَّا الثَاني، وبِنَاءُ النَّفْسِ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ غَايةٌ مَنْشُودة، وسُنَّةٌ محْمُودة، وفي كلِّ هَذَا لا نخَالِفُ الطَّرِيقَةَ التي ارْتَضَيْنَاهَا لــ «أَعَاريب» الميْمُونَة، بِأَنْ نجْعَلَ الحديثَ عن الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ هُوَ شِرْعَتَنَا، ومحْفُوفًا بفَوَائِدَ شَتَّى مِنْ كَلامِ أَئِمَّتِنَا. وقَبْلَ البَدْءِ في تِلْكَ الشَّمَائِلِ والخِصَال، نجْعَلُ مَقَالَنَا هَذَا مخْصُوصًا بالحَدِيثِ عن النُّصُوصِ الدَّالةِ عَلَى أَصْلِ المجَال، فَنَقُولُ وبِاللهِ التَّوْفِيقُ:

(١) السنن الكبرى للبيهقي ، وفي ذيله: الجوهر النقي لابن التركماني، ط/مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣٤٤ هــ، ١٠/١٩٥، برقم ٢١٣٣٣.

(٢) السابق، برقم ٢١٣٣٢.



رَوَى البُخَارِيُّ في الأَدَبِ المُـفْرَدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- قَالَ: «مَا مِنْ شَيءٍ فِي المِيزانِ أَثْقَلُ مِن حُسْنَ الخُلُق»[١]، وقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرِيمٌ يُحِبُّ مَعَالِي الأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»[٢]، وقال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-:«إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[٣]، وقال-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-: «إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِخُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ»[٤]، وقال-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-: «أَلا أُخبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُم إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ -ثَلاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا-، قُلْنَا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: أَحْسَنُكُمْ أَخْلاقًا»[٥]، وقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٦].

وليْسَ بُلُوغُ تِلكَ المَنْزِلَةِ بالشَّيْءِ الهَيِّنِ، فإِنَّ حُسْنَ الخُلُق محِلُّه الاجْتِمَاعُ، ولا تُعْرَفُ شِيَمُ الأَخْلاقِ حَتَّى يبْتَلَى الإنسانُ بمخالَطَةِ النَّاسِ، فحِينَئِذٍ يَظْهرُ صَبرُهُ وتَقْوَاهُ، ويمْتَحَنُ في عدَالَتِهِ، وقَدْ «رَوَى سُلَيْمَانُ بْنُ حُرَيْثٍ قَالَ: شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُكَ، وَلاَ يَضُرُّكَ أَنْ لاَ أَعرِفَكَ، فَائْتِني بِمَنْ يعْرِفُكَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنَا أعْرِفُهُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ؟ قَالَ: بِالْعَدَالَةِ وَالْفَضلِ، قَالَ: هُوَ جَارُكَ الأَدْنَى تَعرِفُ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ ومَدخَلَهُ وَمخْرَجَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَمُعَامِلُكَ بِالدِّينَارِ وَالدِّرهَم اللَّذَيْنِ يُسْتَدَلُّ بِهِمَا عَلَى الْوَرَعِ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَصَاحِبُكَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَلَسْتَ تعْرِفُهُ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: ائْتِني بِمَنْ يَعْرِفُكَ»[٧].

والملاحَظُ على هَذِهِ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ أُمُورٌ نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يَلِي:

أوْلاً: لمْ تخْلُ هَذِهِ النصُوصُ مِنْ عُنْصُرِ التَّوْكِيدِ أو التَّشْوِيق:

فالجملَةُ الخَبَرِيَّةُ في البَلاغَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَى ثَلاثَةِ أَنْواعٍ: الخَبَـــر (الابْتِدَائِيّ)، وهو الخبرُ الخَالي من المؤكِّدَاتِ، ويُنَاسِبُهُ أَنْ يَكُونَ المخاطبُ غيرَ عَالمٍ بمضمونِ الخبر قَبْلُ، والخَبَـــر (الطَّلَبِيّ) وهو المؤكَّدُ بمؤكِّدٍ وَاحِدٍ، ويُنَاسِبُهُ أَنْ يكُونَ المخاطَبُ عَالمًا بالخَبرِ لكنَّهُ مُترَدِّدٌ مُتردِّدٌ في قَبُولِهِ، والخَبَـــر (الإِنْكَارِيّ)، وهو المؤكَّدُ بِأَكْثَرَ مِنْ مؤكِّدٍ، ويناسِبُهُ أَنْ يَكُونَ المخَاطَبُ مُنْكِرًا أَوْ جاحِدًا لمضْمُونِ الخَبرِ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، ثُمَّ يخْتَلِفُ الاسْتِعْمَالُ بحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ المقَامُ مِنْ مُوَافَقَةٍ لأَصْلِ الكَلاَمِ أَوْ خُرُوجٍ عَلَيْهِ لِفَائِدَةٍ بلاَغِيَّةٍ أُخْرَى.

ومِنْ سُبُلِ التَّوكِيدِ فِي هَذِهِ النّصُوصِ استِعْمَالُ الحرفِ (إنَّ) في أكْثَرَ مِنْ نَص، واللامِ في قَوْلِهِ: «لَيُدْرِكُ»، ثُمَّ (إنمَّا) الدَّالةِ عَلَى القَصْرِ والحَصْرِ، كَمَا أَنَّ استِعْمَالَ (أَفْعَل) التَّفْضِيل المـسْبُوقَةِ بِنَفْيٍ في قوْلِهِ: «مَا مِنْ شَيْءٍ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ». أو المجرَّدَةِ عن النَّفْيِ في قَوْلِهِ: «أَكْمَل...أَحْسَنُهُم»، فيه الدِّلاَلَةُ على الزِّيَادةِ، وهذه الزِّيَادَةُ الحاصِلَةُ من المفَاضَلَةِ فِيهَا حَثٌّ وتَرْغِيبٌ وبيانُ الفَضْلِ، وكُلُّهَا محْمُولَةٌ عَلَى مَعْنَى التَّوْكِيدِ، ومن سُبُلِ التَّشْوِيقِ مجِيءُ هَذَا الاسْتِفْهَامِ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَحبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِي مجْلِسًا يوْمَ القِيَامَةِ؟».

والتَّشْوِيقُ هُوَ تحْرِيكُ بَوَاعِثِ الشَّوْقِ في نَفْسِ السَّامِعِ، فَكَأَنَّ المتَلَقِّي أَكْثَرُ تَشَوُّقًا لمعْرِفَةِ المسْئُولِ عَنْهُ وَقْتَ السُّؤَالِ، فَيَقَع بعْدَ ذَلِكَ في نَفْسِهِ أَيمَّا مَوْقِعٍ، ويكُون الغَرَضُ هو جَذْبهُ وتَهْيِأَتَهُ إِلَى تَلَقِّي مَضْمُونِ الخَبرَ لِيَكُونَ فِي نَفْسِهِ آكَدَ من إِلْقَائِهِ دُونَ تَشْوِيقٍ، كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(١) الأدب المفرد، للإمام البخاري رحمه الله تعالى، وسنن أبي داود، ٤١٦٦.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي، ١٠/١٩١، برقم ٢١٢٩٩.
(٣) السابق ، ١٠/١٩١، برقم ٢١٣٠١.
(٤) صحيح ابن حبان ٢/٢٢٨ ، حديث رقم ٤٨٠، وسنن أبي داوود ٤١٦٥.
(٥) السابق ٢/٢٣٥، حديث رقم ٤٨٥.
(٦) السابق، ٢/٢٢٧، رقم ٤٧٩.
(٧) الحاوي في فقه الشافعي، أبو الحسن الماوردي (ت٤٥٠هـ)، ١٦/١٨٠. وانظر سنن البيهقي ١٠/١٢٥، برقم ٢٠٩٠١.



وفي قصةِ إسلامِ أبي ذَرّ، عن عبدِ الرَّحمْنِ بْنِ مَهْدِيٍّ قَالَ: لما بَلَغَ أبَا ذرّ مبعثُ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- بمكة: قَالَ لأخِيهِ: «ارْكَبْ إلى هَذَا الوَادِي فَاعْلَمْ لي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الذي زَعَمَ أنَّه يأتِيهِ الخبرُ مِن السَّمَاءِ، واسمعْ قَوْلَه ثُمَّ ائْتِنِي، فانطَلَقَ حتَّى قَدِمَ مكةَ، وسمِعَ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ رَجعَ إلى أبي ذر، فقال: رأيْتُه يَأْمُرُ بمكارمِ الأخْلاق، وكَلامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ...الخ» ، فَكَانَ ذِكْرُ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ جُـملَةً بَاعِثًا مِنْ بَوَاعِثِ طَلَبِ أبي ذَرٍّ تَقَصِّي حَقِيقَةِ الإِسْلامِ والإِذْعَانِ لَهُ.

ثانيًا: بين الاسمية والفعلية:

غَلَبَ عَلَى هَذِهِ النصُوصِ استعمالُ الاسميةِ -جملةً أو مفردةً- عَلَى الفِعْلِيَّةِ، وذلِكَ لأنَّ الاسمَ أدَلُّ على الثُّبُوتِ وآكدُ للحُكْمِ، وقد أشَارَ ابْنُ فَارسٍ إلى شَيْءٍ مِنْ هَذَا بقولِهِ: «النعتُ اَلْزَمُ، ألا ترى أنَّا نقولُ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، ولا نقول: آدَمُ عَاصٍ غَاوٍ؛ لأنَّ النعوتَ لازمةٌ، وآدمُ إنْ كانَ عَصَى في شيْءٍ فإِنَّه لمْ يَكُنْ شَأْنُه العِصْيانَ فَيُسَمَّى بِهِ».

وحينَ استُعْمِلَت الأفعالُ في هذِهِ النصوص النبويةِ المباركةِ جاءَتْ كُلُّهَا مُضَارعَةً (يحِبُّ- يَكْرَهُ- يُدرِكُ- أُتَمِم- أُخْبرُكُمْ). قال عبد القاهر: «وأمَّا الفِعْلُ فموضُوعُه عَلَى أنَّهُ يقتَضِي تجدُّدَ المعْنَى المثبت به شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ»[1]. وهَذِهِ الأَفْعَالُ مُتَعَلِّقَةٌ بالخُلُقِ تَعَلُّقًا مُبَاشِرًا، مَا عَدَا الفِعْل (بُعِثْتُ) الذي كَان مقدمةً للامِ التَّعْلِيلِ في (لأتمم)، ومَعْلُومٌ أنَّ للمضارعِ معنى الاستمراريةِ والدلالةِ عَلَى التجددِ وعدمِ الانقطاعِ.

وهنا لطيفة تتعلّق بأنواع الأرواح وحظها من الأخلاق، فقد قيل في تحليل العروج بالأنبياء إلى السماء: «الأرواحُ أربعةُ أقسامٍ: الأولُ: الأرواح المكَدَّرةُ بالصفاتِ البَشَرية, وهي أرواحُ العَوَام غَلَبَتْهَا القُوى الحيوانيةُ لا تَقْبَلُ العُرُوجَ. والثاني: الأرواحُ التي لها كمالُ القوةِ النظريةِ للبدنِ باكتسابِ العلومِ، وهذه أرواحُ العلماءِ. والثالث: الأرواحُ التي لها كمالُ القوةِ المدبرةِ للبدنِ باكتسابِ الأخلاقِ الحميدةِ، وهذه أرواحُ المرتاضينَ إذا كَسَروا قُوى أبدَانِهِمْ بالارتياضِ والمجاهَدَةِ. والرابع: الأرواحُ التي حَصَلَ لها كمالُ القُوَّتينْ، وهذِهِ غايةُ الأرواحِ البشريةِ، وهي للأنبياءِ والصديقينَ، فلمَّا ازدادتْ قوةُ أرواحِهِمْ ازْدَادَ ارتفاعُ أبدانِهِمْ عن الأَرْضِ»[2].

ثالثًا: خفوت الجملة الطلبية:

الجملةُ الطلبيةُ على خمسةِ أنواعٍ: الأمرِ والنهي والاستفهامِ والتمني والنداءِ، ومن الملاحظ أنه لمْ تَرِدْ صيغةُ الأمرِ والنهي، وإنما كَانَ الأمرُ عن طريقِ الحَثِّ والتَّرغِيبِ، وبيانِ الفضْلِ والمنزلةِ، وعلى هذا يجبُ أنْ يَسِيرَ المبلِّغُ عَن اللهِ وعَنْ رَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم-، فدلالةُ الأمْرِ أحسنُ ما تكونُ إذَا أَتَتْ عن طريقِ الحَثِّ والترغيبِ وبيانِ الفضل، لا عن طريقِ صِيَغِهِ المباشرةِ إذا كَانَ الآمرُ لا يَعْلُو رتبةَ المأمور، وقد سَلَكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا الطريق غالبًا، مع كونه -صلى الله عليه وسلم-أعْلَى رتبةً ومَقَامًا من المأمورينَ؛ إذْ إنَّهُ هو المُشَرِّعُ بأبي هو وأمي. وأيضًا فإنَّ دِلالةَ النَّهيِ إذَا اقْتَرَنَتْ بالتَّحْذِيرِ لا بِصِيغَتِهِ كَانَتْ أَحْسَنَ إذَا تَسَاوَتْ رتبةُ الناهِي بِمَنْ يُنْهَى عن الفِعْلِ. وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وعن جَابرِ بنِ سُلَيْمٍ قَالَ: «أتَيتُ رَسُولَ اللهِّ -صَلَّى اللهُّ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وهُوَ مــحْتَبٍ بِشَمْلَةٍ لهُ وقد وَقَعَ هُدْبُهَا على قَدَمَيْهِ، فَقُلْتُ: أيُّكُمْ محمَّدٌ أَوْ رَسُولُ اللهِّ -صَلَّى اللهُّ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إلَى نَفْسِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِّ، إنِّي مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَفِيَّ جَفَاؤُهُمْ، فَأَوْصِنِي، فَقَالَ: لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ، وَلَوْ أَنْ تُفرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَإِنْ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلاَ تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ، وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَّ -عَزَّ وَجَلَّ- لاَ يحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَلاَ تَسُبَّنَّ أَحَدًا، فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ أَحَدًا وَلاَ شَاةً وَلاَ بَعِيرًا»[3].

والحمد لله رب العالمين،

(١) انظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني صـ ١٧٤.
(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن ١٢/ ٣٧٤٢.
(٣) مسند أحمد، حديث رقم ١٩٧١٧.